جوانب من ثقافة المرض لدى المغاربة خلال فترة الحماية

ذ بوجمعة رويان
ذ. التاريخ المعاصر بكلية الآداب القنيطرة.

ليس المقصود بهذه المداخلة القيام بعرض نزولوجي لما كان يثوي بين المغاربة من أمراض خلال فترة الحماية، ولا هي حديث عما ينجع من الأدوية في علاج تلك الأمراض، وإنما همنا مقاربة المرض من زاويته الثقافية أو قل من الناحية الانثروبولوجية، أي تصور المغاربة للمرض وأصوله وتعاملهم معه، في وقت كانت تنتصب فيه بالبلاد إدارة تتولى النظر في شؤون الصحة.

وبما أننا في موضوع ذي صبغة انثربولوجية ينحصر في فترة الحماية فإن جذور الظاهرة التي يقاربها قد تمتد إلى عصور موغلة في القدم، أما استمراريتها فمما لا يقدر المرء على التنبؤ بنهايته أو حصره في الزمن.

سأتناول هذا الموضوع في نقطتين تدور أولاهما حول أصول المرض وأنواعه، وتتوخى الثانية البحث في تعامل المغاربة مع المرض ومواجهته وما كان يستعمل في علاجه.

أولا: أصول المرض وأنواعه:

المرض كما هو معلوم، حالة من الانحراف الصحي تلم بالإنسان متى وقع خلل في توازن الجسم. وقبل أن نبحث في أصول المرض، تجدر الإشارة إلى أن دراسة الأمراض وعلاقتها بالتاريخ، بدأت منذ عدة عقود عند المجتمعات المتقدمة، إذ اهتدى مؤرخوها، بما وفره الطب من معطيات، إلى أسباب الأمراض. ودرسوا تاريخها معتمدين في ذلك على طريقتين أولاهما دياكرونية تتناول تطور المرض وعثيانه في مجموعة بشرية معينة، وفي حقبة تاريخيا معينة. أما الطريقة الثانية فسانكرونية وتتناول تطور مربض ما في حقبة تاريخية ما، في علاقته مع ما يثوي بين الناس في الحقبة نفسها من الأمراض الأخرى.

ولم تظهر الدراسات المتعلقة بالأمراض في تتبع تطورها وعيثها في المغاربة إلا مع الطب الاستعماري الفرنسي في بداية القرن العشرين[1] ولو أن مغاربة ألفوا في

---

[1] ـ ظهرت أولى المصنفات المتعلقة بالأمراض في بداية القرن العشرين نخص منها بالذكر
Herzen (v) Notes et réflexions sur la nosologie du Maroc in revue suisse de médecine, nos 4,5 et 6 , 1911.
Douzans (Médecin – major du 1ere classe) : Mémoire sur les nosologie marocaine avant le Protoctorat (1906 – 1908) lyon, 1913.

بعض الأمراض مثل الحب الإفرنجي (الزهري)[1] أو الجدري[2] أو الحميات، ولكن بشكل قلما يكشف عن الأسباب الحقيقية للداء أو يقدم وصفات ناجعة بشأنه.

أما الحديث عن ثقافة فقد ظهر عند الأوربيين، حسب علمنا مع مارسيل ساندراي sendrail في كتابيه: Le serpent et le miroir الصادر سنة 1954 وHistoire culturelle de la maladie الصادر سنة 1980.

1) - ما هي إذن أصول المرض عند المغاربة ؟

ظل المغاربة على الاعتقاد، داخل الفترة التي ندرسها، بأن لما كان يلم بهم من الأدواء أسبابا خارجية، وظلوا يعطون لكل الأمراض أصولا سحرية أو شيطانية[3]. ويمكن إجمال تلك الأسباب في ما يلي:

أ - كائنات غير مرئية كالجن والعفاريت:

ويلاحظ هذا بكثرة في منطقة المرجات، وعلى الخصوص منها منطقة الغرب، التي كان كثير من سكانها يربطون فشو الحمى بينهم بسبب كائنات غير مرئية تسكن المرجات، وهي التي تصيب بضرباتها كل من استحم بالمرجة أو تردد على ضفافها باستمرار. إذ يخبرنا بعض المستجوبين من المنطقة، بأن الفقهاء كاتبي التمائم كانوا يصفون المحموم بأنه "مضروب على الماء"[4]. واعتبر آخرون المرض ريحا أو منزلة. ورأى فريق ثالث أن الطاعون ناجم عن وخامة الهواء أو عن وخز الجن[5].

هناك إذن تدخل من العالم الخارجي لبعض الكائنات غير المرئية، درج الناس على تسميتها بأسماء مختلفة مثل: الأجواد، الليما يتسماوش، اللي ما ذكرنا، مواليين لمكان ... وتستقر في رأي الناس، في البرك والمياه الآسنة والمناطق المهجورة والكهوف والمزابل والمرمدات.

---

1 - انظر في هذا الصدد ما اورده Renaud وColin في كتابهما:

Documents marocains pour servir à l'histoire du Mal Franc.

2 - يشير ابن زيدان في خامس الاتحاف إلى أن الطبيب محمد أدراق من أهل القرن 18، قد ألف كتاب "هز السمهري في من نفى عيب الجدري" رد فيه على من يقول إنه ليس من عيوب الرقيق.ص 403.

3 - Legey (doctoresse) : Essai de folklor marocain, librairie oriontale. Paul Geuthner, Paris 1962. p 140.

4 - رويان (بوجمعة) نموذج عن الأحوال الصحية في البادية المغربية خلال فترة الحماية: حمى المستنقعات في منطقة الغرب ضمن كتاب: البادية المغربية عبر التاريخ. تنسيق إبراهيم بوطالب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1999، ص 200.

5 - اعتبر المختار السوسي في الجزء الثاني من كتابه "المعسول" وباء الطاعون الذي ضرب سوس في خريف 1918 وخز جن.

ب ـ الآخر كسبب للمرض:

ـ العين: جاء في لسان العرب: العين أن تصيب الإنسان بعين، وعان الرجل يعينه عينا، فهو عائن، والمصاب معين ومعيون[1]، ويقصد بالعين عند عامة الناس أن من الأشخاص من عينه شريرة إذا نظرت إلى شيء وأعجبها، أصيب لتوه بأذى خطير. وقد يكون المعيان حاسدا أو معجبا.

عرف ابن خلدون العين بقوله:"الإصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات أو الأحوال، ويفرط في استحسانه وينشأ عن ذلك الاستحسان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتصف به فيؤثر فساده[2]. ورأى Westermark أن العين كانت تخشاها شعوب مختلفة، ويبدو الإيمان في التأثير الفعلي للعين الشريرة متشابها عند الساميين والآريين وشعوب البحر المتوسط[3].

وكان المغاربة في فترة الحماية يستحضرون دائما مجموعة من الأقوال عن العين مثل "العين حق والسحر حق" أو "العين تخلي المنازل وتعمر القبور"، أو "إن نصف البشرية يموت بالعين" أو "ثلثا المقابر أودت بمن فيهما العين"[4].

وكان الشخص المعيان يعرف بغرابة نظراته وأنانيته[5].كما قد يوصف المعيان الخطير بأنه:"ذو عينين غائرتين مع التقاء الحاجبين عند جذر الأنف[6]، ولعل هذا النوع من المعيانين هو الذي عناه دوتي Doutte عندما حكى عن ذلك الرجل الذي تعجب من صخرة كبيرة، فانفلقت في الحال وانفجرت شظايا[7].

وأما ما كانت تشكله العين من خطر على حياة البشر – في نظر الناس يومئذ- فإنهم كثيرا ما نوا يتحدثون عن صحتهم الجيدة أو عن نجاحهم في ميدان من الميادين، بنوع من التحفظ : "إذ كان من باب التهور والمخاطرة أن يدعي شخص ما أنه بصحة جيدة[8]، لأن ذلك في نظره يؤدي إلى زوال النعمة، حتى قيل في هذا:

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين[9]

وتزداد خطورة العين إذا صحب النظرة كلام، فينضاف إلى العين الشريرة فم

---

[1] ـ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد) لسان العرب، الجزء 13، ص 301.

[2] ـ ابن خلدون (عبد الرحمان): المقدمة، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ ص 556.

[3] - Westermarck (E) : Survivances païennes dans la civilisation mahométane. Payot Paris 1935 , p 75.

[4] - Brunot (L) : Au seuil de la vie marocaine. Librairie Faraivre, Casablanca 1950, pp 86 – 87.

[5] - Mauchamp (E) : La sorcellerie au Maroc (œuvre posthume), Dorbon Aîné, Paris 1911, p 214.

[6] - Westermarck (E). Op. cit, p 36.

[7] - Doutte (E) : Magie et religion en Afrique du Nord. Alger 1909, p 320.

[8] - Mauchamp, op. cit. p 219.

[9] ـ ابن قيم الجوزية: الطب النبوي، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت، ص 178.

شرير[1]، ويصبح الأمر أخطر إذا كان المعيان غير معروف[2].

وتتسبب العين – كما درج الناس على الاعتقاد بذلك – في أمراض غامضة وغير محددة، وتمس الحيوانات الأليفة النشيطة، والسوائم الجميلة المظهر، فتصيبها بأذى قد يؤدي إلى هلاكها "كأن عين المعيان تفرغ على من تنظر إليه مادة غير مرئية كالسم الذي ينبعث من عين الأفعى[3]، وقد قيل قديما: "إن العين تدني الرجال من أكفانها والإبل من أوخامها".

- التوكال.

من فعل أكل، وعندما تستعمل في العامية المغربية، يقصد بها أكل السم في الطعام أو الشراب، دون علم الضحية[4]،، وكلمة توكال كلمة غامضة تخيف في المغرب، وتعني بالتعبير الدارج كل ما يتم دسه للإنسان في الطعام أو الشراب من مواد سامة بغية إلحاق الأذى به[5]. والتوكال ظاهرة قديمة ورد ذكرها في كثير من المصادر المتعلقة بتاريخ المغرب (نجدها مثلا عند ابن الأحمر في روضة النسرين، وفي مصادر أخرى)، وعند بعض الأطباء الأجانب الذين زاروا المغرب، كما هو الشأن عند لامبريير Lemprière، الذي تحدث في رحلته عن تسمم بعض حريم السلطان. وكان المغاربة يعتقدون أن من علامات التوكال، الشعور المستمر بالتعب والوهن، وتقشر الجلد وتساقط الشعر من مختلف مواضع الجسم والسهو والنسيان[6] بالإضافة إلى النحول والهزال وتتباع نوبات القيء.

وكانت المواد السامة غالبا ما تدس في الكسكس، وهو الطعام المفضل لدس السم، فمكونات الكسكس وطرق تحضيره وتقديمه من العوامل المساعدة على دس أنواع مختلفة من السم دون أن يثير ذلك انتباه أحد، لذلك اعتبره شارنو Charnot، وهو أحد المتخصصين في السمامة بالمغرب، سواغا من الدرجة الأولى لكل السموم[7].

---

[1] -Westermarck (E), op. cit, p 34.

[2] - Maucamp, op. cit, p 215.

[3] - Doute, op. cit, p 317.

[4] - نادية بلحاج: التطبيب والسحر في المغرب، الرباط، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1986، ص

[5] - مصطفى واعراب: المعتقدات والطقوس السحرية بالمغرب، دار الحرف، القنيطرة 2007، ص 218.

[6] - بلحاج، مصدر سابق، ص 84.

[7] - CHARNOT (A) : La toxicologie au Maroc (Mémoire de la société des sciences naturelles au Maroc). Archives scientifiques du Protectorat français. N XLVII, novembre 1945, pp 60 – 61.

واستعملت الحريرة كذلك كمسوغ للسم، إذ عثر شارنو على قطع من الزرنيخ في معدة أحدهم مع الحريرة بعد فحص سمامي[1]. وكان الشاي والقهوة من المشروبات الشائعة والمفضلة كذلك لدس السم.

وقد قسم شارنو المواد التي كانت تستعمل في التسمم إلى مواد ذات أصل حيواني وأخرى ذات أصل نباتي، وثالثة ذات أصل معدني[2]، ويدخل ضمن الصنف الأول، الذبابة الهندية والحرابي والضفادع والغربان وبيض الزواحف ... أما الصنف الثاني فيضم البصيلة أو العنصل، والدفلة، وشدق الجمل، وبيض الغول، والداد ... ونجد في الصنف الثالث الرهج والزئبق والزنجار .... وقد أوردت نادية بلحاج بعض ما أورده شارنو من تصنيفات تتضمن أسماء المواد السامة ومضارها، وذلك في جدول بأسمائها العربية والأمازيغية و الفرنسية[3]. وأضاف مصطفى واعراب إلى الأصناف الثلاثة التي عددها شارنو، صنفا رابعا من المواد التي يعتقد العامة في أنها تحوي عناصر سامة، ويتكون في الغالب من أجزاء من جسم الإنسان كالأظافر ودم حيض النساء، والتراب المجلوب من سبع مقابر مختلفة، وأضلع الموتى وعظامهم وأظافرهم وماء غسيل الميت[4].

وتكشف الرواية الشفوية عن كثير من مآسي التوكال في الأسر ذات الزواج المتعدد أو ذات الزوج المبالغ في الصرامة، وهو أمر كانت ظروف عيش عائلات كثيرة تحت سقف منزل واحد (الأب والأبناء وأزواجهم) من أهم العوامل المساعدة على وقوعه.

- المرض قضاء وقدر.

كان المغاربة يعتبرون أن المرض آت من القدر. وقد اختلفت ردود المستجوبين على الأسئلة المطروحة في هذا الشأن، بل غنها كانت متناقضة في بعض الأحيان. فتارة يقولون "إن المرض الفلاني أصاب شخصا ما لأنه لم يكن يقول إن شاء الله" أو لكونه ارتكب ذنوبا كثيرة، فيرفقون الدعاء له بعبارة "الله يجعلها مغفرة الذنوب"، وتارة أخرى يقولون "المومن مصاب" أو "أن المومن هو الذي يتفكره الله".

وشاع بين المغاربة خلال فترة الحماية الدعاء بالمرض أو الأمراض المعروفة في تلك الفترة، إذ وجدنا "الله يعطيك الحمى"، "الله يعطيك جذام الحارة" "الله يعطيك التوفيس" (كذا)، "الله يعطيك الرمد"، "الله يعطيك العمى"..

---

1 - Ibid, p 61.
2 - Ibid, p 64.

3 - انظر ذلك في صفحتي 84 و85 من كتابها المعتمد.
4 - مصطفى واعراب، مرجع سابق، ص 220.

2 ـ أنواع المرض:

لم يكن المغاربة يعرفون تصنيف الأمراض أو ما عرف عند الأوربيين بالنزولوجيا، وظلوا يصنفون الأمراض كالتالي:

- حسب مكان الألم، فيقال مرض الراس، مرض الجنب، مرض الرية، وكثيرا ما يتخذ المرض اسما مسبوقا بلفظ "أبو" مثل بوتليس، وبوحمرون وبودحاس، وبوزلوم، وبوكَليب، وبومزوي، وبوشنينيق وبوهزاز ... الخ[1].
- حسب ما يحدثه الداء على لون الإنسان من تغيير، فيقال: بوحمرون، بوصفير، الحمراء، أم أركَيط.
- حسب ميزته الحرارية: البرد، السخانة، الحمى، على أننا نشير إلى أن البرد يتخذ معاني أخرى غير الزكام أو نزلات السعال، مما كان يقال عن المصاب بها "ضربه البرد"، بل نجده يتخذ عند البعض معاني مرادفة للزهري والبلهارسيا والسيلان، وجميع الأمراض التي تمس الجهاز التناسلي للإنسان، أو تتسبب في تقوس ظهره.
- حسب قوته: فيقال للزهري النوار أو أكَليد أو المرض الكبير أو العقايب، ويقال للسل الضر الكبير أو المرض القبيح، ويقال للجذام الباس الكبير، وذلك حسب ما يلحقه المرض من ضرر وتشويه.
- حسب ما يحدثه في الأعضاء، فنجد مثلا بوتفتاف، بوفالج، بوركيب.
- حسب كارثيته: السالمة (تلطيفا)، المكلفة، كَردة.

ويبدو ولأول وهلة أن هذا التصنيف بدائي يعتمد الملاحظة السطحية ولا يأخذ بعين الاعتبار سبب المرض ولا أنواع المكروبات التي نجم عن وجودها.

ويجدر الإشارة إلى أن من الأمراض ما كان المغاربة يعتبرونه حتميا في حياتهم ولا مفر منه، إذ يصاب به كل شخص آجلا أو عاجلا، ومن تلك الأمراض الزهري بالإضافة إلى بوحمرون والجدري الذي تحدث صاحب "حجة المنذرين" عمن فاتهم ومن لم يفتهم[2]. ولعل ارتباط الناس بهذه الاعتبارات راجع إلى كون تلك الأمراض كانت تعيث في عدد كبير منهم إلى درجة أصبحت الإصابة بها، في نظرهم أمرا لا مفر منه.

---

[1] ـ عبد الوهاب بنمنصور: المضاف والمنسوب والمنعوت في العربية العامية المغربية وأمثالها، ضمن ندوة: الأمثال العامية في المغرب، تدوينها وتوظيفها العلمي والبيداغوجي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 2003، ص 299.

[2] ـ ابن المواز(عبد الواحد): حجة المنذرين على تنطع المنكرين، الطبعة الحجرية، الجزء الثاني، ص 86– 87.

ثانيا: تعامل المغاربة مع المرض ومواجهته:

اختلفت طرق تعامل المغاربة مع المرض ومواجهته، فهي تارة بالدعاء والتترس ببعض العبارات والأشياء، وتارة بالصبر والتحمل وعدم الاكتراث، وطورا بالاسترشاد بطرق علاجية من شأنها في نظرهم، كشف الضر وطرد الألم.

1 ـ خوف من المرض وخوف من الطبيب.

أ ـ الدعاء والتترس ببعض العبارات والأشياء.

في ما يخص الدعاء نجد دعوات من قبيل "الله يخفف ما نزل"، "الله يطلق لسراح" (كأن المريض سجين) "الله يجعلها مغفرة للذنوب" (كأن المرض عقاب على ذنب مقترف)، "يعيا الضر ويمر"، الله يجيب الشفا" ... الخ.

وكان المغاربة يرفضون طول المرض، ويكرهون أن يردوا إلى أرذل العمر، غير أن هناك تناقضا في ما كانوا يتناقلونه من عبارات عن ذلك، كقولهم "الحياة فوق شوكة ولا الموت"، ومعنى هذا القبول بطول المرض ولا الموت، وكقولهم: "بطياح الكَلة بتهراسها" أي الموت بمجرد حصول المرض ... أو الموت دون المرور بمرحلة المرض. ويرجع تمني المغاربة الموت دون طول المرض أو حصوله، إلى أن المريض بلزومه الفراش طويلا يتسبب لعائلته وذويه في كثير من المتاعب، ليس أقلها قضاء حوائجه الطبيعية في لباسه وعلى فراش المرض، بسبب عدم القدرة على القيام، ناهيك عما يحسه جراء ذلك نفسيا وجسديا.

أما في ما يتعلق بالتترس من المرض ببعض العبارات أو الأشياء، فقد دأب الناس درءا للمرض على ترديد عبارات :"ماشكيت عليك" أو "الله ينجيك" ظنا منهم أن من اشتكى إلى شخص مسلم من مرض ما، فإن ذلك قد يكون سببا في انتقال المرض إلى المشتكى إليه. وحتى عندما تكثر شكاوي مريض ما إلى شخص سليم، ويظن هذا الأخير أن صاحبه يمطره بالشكاوي لينتقل المرض إليه، فإن جواب المشتكى إليه، يكون: "اشك على الكرمة تزيدك عرمة".

ودرج الآباء من فرط الخوف على صغارهم الذين كان الموت يحصدهم بغير حساب، على تدجيج هؤلاء الأطفال بأطواق وقلائد تنتظم في خيوطها جعبات من القصب وأظافر بعض الحيوانات الكاسرة وقطع من النقود القديمة[1]. وشاع بين الناس كذلك وضع تمائم على ترائب أبنائهم، وتدل عبارة "حتى شاب عاد دارو ليه حجاب"، وتقال عندما لا يكون المقام مواتيا للحال، على أن التمائم كانت تعلق للأطفال خوفا مما كان يتربص بهم من غوائل المرض والموت.

---

[1] ـ بوجمعة رويان: الطب الاستعماري الفرنسي بالمغرب (1912 – 1945) أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر تحت إشراف الأستاذ إبراهيم بوطالب، السنة الجامعية 2003 – 2004، كلية الآداب، الرباط، مرقونة، ص 293.

ب ـ الخوف من الطبيب وعدم الاكتراث بالمرض.

هناك أمثلة كثيرة عن هذا التصرف تجاه المرض، تتردد في تقارير إدارة الصحة، من ذلك مثلا ما لاحظه الطبيب كولمباني Colmobani عندما ضربت موجة من التيفوس سنة 1925 مدينة مراكش، من فرار الناس، في بعض أحياء المدينة، بمرضاهم من منزل إلى آخر حتى لا يراهم مراقبو الصحة[1]. وانتشرت بين المغاربة من جهة أخرى عادة عدم الاكتراث بالمرض ما دام لا يردي صاحبه طريحا، إذ ترد بين ثنايا كثير من تقارير إدارة الصحة إشارات حول عدم إقبال المغاربة على الذهاب إلى الطبيب إلا بعد أن يستفحل أمر الداء، وفي هذا الصدد نورد ما كتبه أحد أساتذة اللغة العربية في كتيب صدر له بالدارجة المغربية سنة 1943، إذ يقول :"منين كايمرض لينا واحد كايجي فبالنا إلا غدا يصبح باري وكانتراخاو عليه حتى كايزيد عليه الضر عاد كانمشيو لعند الطبيب، وهو منين كايشوف المريض كايبدا يلومنا"[2]. ويرجع الكاتب ذلك إلى الخوف من الطبيب إذ يقول: "كاتجينا الهيبة من طبيب المساكن (كذا) اللي كا يعالج الناس في المستشفى، دارو المخزن يداوي الناس ويعطيهم الدواء باطل، علاش ذاك الخوف"[3].

وهذا التعامل مع المرض هو نفس ما أشار إليه الصبيحي، وهو يقارن بين تصرف كل من الأجانب والمغاربة تجاه المرض، إذ يقول :"... الفزع إلى الطبيب بمجرد استشعار العلة فيسهل تلافيها في أقرب وقت بخلافنا نحن، فإننا لا نذهب إلى الطبيب إلا عند استفحاش أمرها وتوقع الخطر الكبير منها فيتعسر تلافيها[4].

واعتاد المغاربة عند زيارة مرضاهم التحلق حول المريض وسؤاله عن حاله وتقديم بعض الوصفات، وذكر بعض التجارب مع نفس المرض في إطار "سال لمجرب لاتسال طبيب". وكان ارتسامات العود المتحلقين حول المريض، تختلف ما بين متفائل بالشفاء ويائس منه، فيذكر البعض أن كثيرين أصيبوا بهذا الداء وأبلوا منه، فيما لايجرؤ المتشائمون مراعاة لنفسية المريض وأهله، على ذكر أن الداء ذهب بحياة بعض من يعرفونهم من الناس.

ويذكر محمد بخوشة عادات أخرى في تعامل المغاربة مع المرض متحدثا عن "عادة المسلمين منين يطلوا على المريض" إذ يقول :"يمشيو لعندو ويطلوا عليه ويرجلوه ويصبروه ويفوجوا عليه بالكلام، كا يكون خاطره ضيق، وكايقنط منين

---

[1] ـ المرجع السابق نفسه، ص 21.

[2] ـ محمد بخوشة: أدب المغاربة وحياتهم الاجتماعية والدينية وبعض خرافاتهم. الدار البيضاء، 1943، ص 24.

[3] ـ المصدر السابق نفسه.

[4] ـ الصبيحي (أحمد بن محمد): في بعض العادات المغربية، فاس محرم 1344، مطبعة أندري، ص 31.

يطول به المرض، وكاين اللي كا ينعت ليه الدواء: سال لمجرب لا تسال الطبيب، وفي القاعدة كايجيبوليه شي هدية إذا كان محتاج: السكار وأتاي واللحم والخضرة.

واللي هي قاعدة خايبة عند المسلمين هي قوة الناس اللي كايدخلوا يشوفو لمريض ويسولوه، وبعض المرات ما كايكون عنده قوة باش يهدر، وما في يده غير كايرد عليهم الجواب، ويزيد هذاك الكلام يعييه، وبعض المرات كايكون قريب ينعس وبسببهم يطير له النعاس، ومن الأدب ما يردو شي من الباب اللي يجي يشوف لمريض، لازم يدخلوه ويجلسوه جدا لمريض. عند النصارى المرأة كتقابل اللي جاو يشوفوا لمريض وكاتدخلهم في الصالة وكاتدوي معهم، وكاتخلي لمريض ناعس حتى أحد ما يزيد يعييه"[1].

2 - طرق العلاج:

استغرب الفرنسيون وغيرهم من الأوربيين، وهم ينزلون بالمغرب، بعد توقيع الحماية، مما كان يستعمله المغاربة من وسائل العلاج ودرء الأمراض، إذ ألفوهم يجترون طرق العلاج التي وجدوا عليها آباءهم، متشبثين بوصفات تعود في معظمها إلى عهود خلت، وهي وصفات اصطبغت، أمام ما حاق بالطب من الانتكاس وتوقف الجهاد، بما يشبه المزيج من التعاويذ والسحر والخرافات والرقى والتمائم والتنجيم، حتى أصبح من المستحيل، حسب دوتي، التمييز بين الطقوس السحرية والطقوس الطبية[2].

ويمكن أن نقسم طرق العلاج التي كانت متداولة بين الناس، خلال فترة الحماية إلى:

أ - الاستشفاء بالحمات.
ب - الاستشفاء بالأولياء.
ج - التداوي بالأعشاب والحيوانات.
د - التداوي بالكي والجراحة والكتابة.

أ - الحمات:

أهم الحمات التي كان المغاربة يترددون عليها للاستشفاء، حمة مولاي يعقوب شمال غرب فاس. ودون أن ندخل في البحث عن تسمية هذه الحمة بحمة مولاي يعقوب[3]، نشير إلى أن ماء الحمة مغث تنبعث منه رائحة الهيدروجين المكبرت، وتتفجر قرب العين الرئيسية عيون ثانوية خمس، تتخذ أسماءها في ما يبدو، مما كانت تنجع في علاجه من الأمراض، فهناك عين العينين، وعين الوذنين، وعين العاكَرات

---

1 - بخوشة: مرجع سابق، ص 27 – 28.

2 - Doutte (E) : Magie … p 37.

3 - انظر في هذا الصدد بحثنا لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر – مرجع سبق ذكره، ص 271 وما بعدها.

وعين القرع وعين لرياح[1]. وتحتوي حمة مولاي يعقوب على صهريجين، يمر الماء من صهريج الرجال ثم يتدفق إلى صهريج النساء.

وكان الناس يؤمون حمة مولاي يعقوب لعلاج البتور والقروح الجلدية والنمش والقرع، وأمراض أخرى كالزهري وداء المفاصل والتهاب النقي (مخ العظام)، والربو، وقد قذفت العلل المذكورة بأعداد كثيرة من المغاربة نحو مولاي يعقوب طلبا للعلاج أو التبرك، فقدرتهم جريدة "الأطلس" بالآلاف سنة 1937[2]. وحددت جريدة "السعادة" عددهم في خمسة آلاف سنويا[3].

لقد كان كثير من الناس يعتبرون حمة مولاي يعقوب واحدة من أثافي العلاج لكل ما كان يلم بهم من أمراض. غير أن الطب الباستوري الذي اقتحم المغرب مع الحماية، قد بين نسبية ذلك، لأن نجاعة ماء الحمة لم تكن تتعدى تجفيف القروح أو توقيف نجيجها بفعل حرارة الماء وما يحتويه من مواد كبريتية.

ب ـ الاستشفاء بالأولياء

شكلت أضرحة الأولياء في ثقافة المرض لدى المغاربة، أماكن كان يدلف إليها الناس طلبا لكشف ما قد يحيق بهم من الأمراض وما إلى ذلك من أنواع الضر. وقد يتردد بعض الناس على ولي من الأولياء لتحقيق أغراض دنيوية كالربح في تجارة أو البحث عن زوج أو لطلب حظ سعيد.

ونظرا لكثرة الأضرحة التي كان يؤمها الناس فسنقتصر منها على بعض الأمثلة، وأول ما يطالعنا في هذا الباب، ضريح سيدي بن عاشر، الذي كان محجا لكثير من الزوار طلبا للشفاء، وهي ميزة عرف بها قبل الفترة التي ندرسها بزمن طويل. قال فيه عبد الله بن محمد العياشي:

أقول لسقمي إذ تفاقم أمـره وعــز الـدوا من كـل من هو نا صــري
ألا فانصرف بالله عني إنـــني أنا اليــــوم جار للولــي ابن عاشـــــر[4].

وقد اشتهر هذا الولي لدى عامة الناس، خلال الفترة التي ندرسها، بعلاج كثير من العلل عثرنـا على ذكرها في قصيدة حملتها " تحفـة الزائـر" وهي لمحمد بن احمد الجريري من أهل القرن التاسع عشر ، وجاء فيها :

---

1 - CHIRAY (H) : Une mission aux eaux minérales du Maroc, in Maroc Médical. Janvier – fevrier 1947, p 9.

2 ـ مولاي يعقوب، الأطلس يوم 1937/6/10.

3 ـ حول حمة مولاي يعقوب. السعادة ليوم 15 شتنبر 1938.

4 ـ الحافي (أحمد بن عاشر): تحفة الزائر بمناقب الحاج أحمد بن عاشر. تحقيق وتقديم مصطفى بوشعراء، منشورات الخزانة الصبيحية، سلا 1988/1409، ص: 104.

دواؤكم الميمون شوهد نفعه وإجداؤه في كل داء مخامر
فكم مقعد وافاك يزحف فانثني معافى، وكم أعمى ومضنى بعاثر
وكم من مصاب جاء يقذف بالحصا فثاب قرير العين نحو العشائر
وكم كلب وافى حماك، وأكبد وذي عاهة تعيي المعاني، وسادر
ومشتكي أوجاع المفاصل وربو وضيقة وضر بباهر
وعلة صرع أو صداع ونقرس وأوجاع أرحام ووكر نواشز
وكم علة أعيا الطبيب علاجها شفيت بإذن الله عند ابن عاشر
فما طب بقراط لديه مدون ولا علم جالينوس طبع العقاقر
وما هو إلا السر يشرق نوره حباه به المولى عليم السرائر
مواهب لم يدر ابن سيناء سرها ولا شامها الرازي يوما بناظر[1]

واشتهر بفاس ضريح سيدي علي بوغالب لعلاج الخوارج، وهي دماميل تظهر في بعض أجزاء الجسم ، وأورد صاحب "السلوة" أن الفقيه عبد السلام جسوس من أهل العقد الأول من القرن الثامن عشر، قد استشفى بسيدي علي بوغالب من دماميل ألمت به ، وذكر في قوله:

إذا ما الخوارج قد خرجت بجسمي وضاقت بها حيلي
أتيت ضريح أبي غالب وهل للخوارج إلا علي[2]

وشاع بين المغاربة اليهود ، علاج العقم على يد صلحائهم أمثال أولاد زميرو السبعة ، في إحدى التلال القريبة من أسفي، بل إن الاعتقاد كان سائدا في قدرتهم على كشف كل أنواع الضر وخاصة الجنون والصرع وإبطال مفعول الشعوذة[3].
ج ـ التداوي بالأعشاب والحيوانات وكان يعتمد على النباتات والحشرات والطيور والحيوانات والمعادن.

ـ النباتات

كان المغاربة يستعملون في علاجاتهم خلال فترة الحماية نباتات كثيرة

---

[1] ـ المصدر السابق ص 129 – 130.
[2] ـ الكتاني (محمد جعفر) سلوة الانفاس ومحادثة بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس – المطبعة الحجرية فاس، 1316 هـ ج2، ص 22.
[3] - Flamand (p) quelques manifestations de l'esprit populaire dans les juiveries du sud du Maroc, Casablanca, S.d. p 45 .

ومختلفة تتخذ أسماء عربية أو أمازيغية أو لاتينية، ومما يثير الانتباه هنا هو معرفة المغاربة الكبيرة بمجموعة من الأعشاب التي تصلح لهذا المرض أو ذاك ، حتى ليخيل للمرء وهو يتجاذب الحديث مع كثير ممن تم استجوابهم أن الأمر يتعلق بأطباء نطاسيين وكأننا فعلا أمام طب بدون أطباء[1].

وكان كثير من الأعشاب المستعملة في التطبيب أيام الحماية، يحمل أسماء منسوبة إلى حيوان مثل شدق الجمل، وعنب الذيب، وبيض الغول وأذن الحلوف ، وقرن الجدي وشوك الحمار......وكان العلاج بالنباتات يتم باستعمال أوراقها أو أزهارها أو حبها أو لحائها أو جذورها، وذلك بتجرع نقيعها أو طبيخها، أو بسف مسحوقها أو استنشاق ما ينبعث بعد حرقها من دخان.

وكانت الوصفات مستقاة من تجارب السابقين أو من المصنفات الطبية التي لم تكن تخرج في ما لاحظناه عن كتابين هما :" كتاب الرحمة في الطب والحكمة" وكتاب " تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب " لداوود الانطاكي . ولابد من الإشارة هنا إلى أن بعض الأطباء الفرنسيين، الذين مارسوا الطب بالمغرب أيام الحماية، قد عملوا، في إطار مزيد من التعرف على المغاربة يومئذ، على جمع الوصفات العلاجية التي شاع الاعتماد عليها في ما كان يطرق من أمراض[2].

- الحشرات والطيور والمعادن

استعمل المغاربة كثيرا من الحشرات في علاج بعض الأمراض، فاستعملوا في ذلك النمل والجراد والدود والصراصير والعقارب وغيرها. ومن الأمثلة على ذلك ما كان شائعا في زمور لطرد ما تستحر به الأجسام من الحميات، إذ تعلق دودة في عنق المريض، وتتكلف الرائحة الكريهة المنبعثة منها بكشف الضر[3].

واستعمل آخرون الصراصير لنفس الهدف، وذلك بإحراقها وجعل المحمول يستنشق دخانها[4].

وكانت الحيوانات والطيور حاضرة في وصفات بعض الأمراض، إذ استعملت السلاحف والحرابي والقنافذ والغربان واللقالق والحدأة والأبوام والهداهد

---

[1] - عبارة" طب بدون أطباء " هذه ، عنوان لكتاب صدر لمصطفى أخميس ، وهو من المهتمين بالطب التقليدي.

[2] - نذكر على سبيل المثال.

- Mauchamp (E) : La sorcellerie au Maroc (ouevre posthume) Dorbou Ainé .Paris 1911.

- A .R De lens : Pratiques des harems marocains .Sorcellerie médecine .beauté. Paul Greuthner.Paris 1926.

[3] - Laoust (A) : Mots et choses berbères .A. Eballamel .Editeur .Paris 1920 p

[4] - Mauran et Renaud (H.P.J) : Notes sur la thérapeutique indigène dans le sud marocain in Hespéris .3° trimestre, T : II, 1922, P 325.

وغيرها، وحظي الهدهد لدى المغاربة اليهود بتقدير خاص، إذ اعتبروه مجابة للتقدير والغنى وثقة الحكام[1]، فيما اعتبره المسلمون مجلبة للعلم والمعرفة. وكان معلوما بين الناس أن طبخ السلحفاة مع الكسكس وأكلها نافع لعلاج الزهري، كما شاع بينهم أن اللقلاق مفيد، بعد طبخه، لعلاج النوار، واستعمل المغاربة بعض المعادن في وصفات العلاج أو درء خطر العين، كالملح والحديد والنحاس والحديدة الحمراء والحديدة الزرقاء والشبة والكبريت وغيرها. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره الطبيبان موران Mouran ورونو Renaud عن علاج الرمد بتقطير محلول البارودية الممزوج بالماء الفاتر[2]. أو ماورد عند ماتيو Mathieu، وهو يتحدث عن علاج أمراض العيون لدى الاطفال اليهود في ملاح الدار البيضاء، إذ عرض لبعض ما كان يستعمل في ذلك كقطرات للعين، وهي كما يلي :

- خلط حليب المرضع لبنت مع بعض التوتيا.
- خلط الشبة مع طباخة أوراق الورد.

أما الرمد فكانت تستعمل ضده قطرات من الحديدة الحمراء والعسل أو التوتيا والعسل[3].

د – الكي والجراحة والكتابة.

- الكي والجراحة.

الكي هو لمس المصاب بإحدى الأدوات المستعملة في ذلك كالسكاكين والمخاطف والمخايط والمحاور. وعرف الكي لعلاج اليرقان وعرق النسا والحمى وأمراض المعدة، وما قد يشوب مفاصل الإنسان ونواشره من آلام الفدع والوكز، وقد يقتصر الكي على ما يسمى "الرشامة"، وهي أن يحمى على سكين حادة ويرشق بحدها العضو المريض رشقات سطحية خفيفة وسريعة، كما قد يصل الكي إلى حد ثقب الجلد، وهو ما كان يسمى "النفذة" وتكون في البطن أو في عظم القلادة من أعلى العنق، إذ يحمى على مخيط في سمه خيط من الصوف ورشقه في جلد البطن حتى ينفذ، وسحب المخيط مع ترك الخيط الصوفي في الثقب[4].

وكانت الجراحة تعتمد على الحجامة والفصد واستئصال الأورام وجبر الكسور وإزالة الجلالة من العين وقلع الاضراس. وكان الهدف من الحجامة استفراغ

---

1 - Flamand (P) : quelques manifestations…….op cit .p 64

2 - Mauran et Renaud (H.P.J) : Notes sur la thérapeutique indigène dans le sud marocain in Hespéris .3° trimestre, T : II , 1922, P 325.

3 - Mathien (J) :Notes sur l'enfance juive du mellah de Casablanca. CHEAM, N° 2546,P 64.

4 - أكد لنا أحد المستجوبين الذين أجريت لهم هذه العملية أن ذلك معلوم ضد الحمى وأمراض المعدة.

ما يحتقن من الدم في عروق الإنسان عن طريق الأخدعين بواسطة آلة تسمى المحجمة ويسميها عامة الناس القارورة أو الكيسان[1]. أما الفصد فكان يتم لاستئصال الأورام أو استفراغ ما بها من أخلاص، وشاع بين الناس نوع من الفصد يسمى "الشراطة" ويقضي بشرط مكان اللدغ لاستفراغ ما خلط بالدم من سم الأفاعي أو العقارب أو العناكب.

وكان ممارسو الطب، حسب شهادة من رأى ذلك من الأجانب، بارعين في إزالة الغشاوة من على العين[2]، وتفننوا في رتق ما قد كان يعتري الجمجمة من التصدع أو الكسر[3]. ولم يكن المغاربة يرون من آلام الأضراس سوى القلع، حتى شاع بينهم المثل القائل: "اللي ضرتو الضرسة يقلب على الكلاب "، وهو مثل قد يسحب على أحوال أخرى، لكنه يعبر على أن الدواء الناجع لآلام الأضراس هو القلع، على أن بعض الحجامين ممن كان يستوصفهم الناس لألم الأسنان، كانوا يضمخون السن المريضة بخليط من الثوم والملح وفجل الخيل، ويملأون ما تقعر من السن المسوسة بجذور جوز الريان بعد غمسه في الحليب ويلفون الكل بشمع العسل[4].

وانتشرت بالمغرب يومئذ مهنة جبر الكسور، وكان القائمون بها يتولون إملاح العظم من الكسر حتى يتصل ويلتحم على طبيعته الأولى[5]. وذلك باستعمال الجبيرة التي تتكون من أنصاف عيدان القصب أو أعواد الدفلة أو الخشب، التي يلف بها المجبر العظم المكسور بعد أن يلحمها بعجين من الدقيق ومع البيض، ثم يشدها بأحكام حول مكان الكسر بعد أن يسوي طرفي العظم بدقة، ويربط ذلك بخيوط صوفية غليظة أو بخرق من الثوب الخشن، وبعد خمسة وعشرين يوما يزيل المجبر الضمادة ويوصي المكسور أن يحرك عضوه المكسور بتؤدة وحذر كبيرين إلى أن يشفى نهائيا[6].

- الكتابة:

دأب المغاربة على التداوي بالكتابة في دفع ما كان يعتور حياتهم من العلل، فكانوا يعتمدون على ما يوجد بين ثنايا المصنفات الطبية القديمة من الوصفات، على الرغم مما يشوب تلك الوصفات من خلط بين ما هو سحري وما هو طبي. وكان

---

[1] - أدلى لنا كثير ممن استجوبناهم في هذا الشأن بهذين الاسمين.

[2] - RAYNAUD (L) : op. cit, p 136.

[3] - تتحدث الرواية الشفوية عن هذا ويتطابق مع ما ذكره Walter Harris في كتابه:
Le Maroc au temps des sultans, Traduit de l'anglais par P. Odinot , Ed Ballard, Paris, S.d, P 310

[4] - RAYNAUD (L) .op. cit. P 135.

[5] - نادية بلحاج : التطبيب والسحر بالمغرب .ص 64.

[6] - Mathieu (J) op .cit p 126.

الاعتماد في ذلك شبه كلي على كتابين أولهما وأوسعهما انتشارا كتاب الرحمة[1]، الذي وصفه دوتي Doutte بأنه يحتوي على وصفات سحرية بالقدر نفسه الذي يضم فيه وصفات طبية، إذ تتعايش طرق الجن مع الإشارات العلاجية[2]، أما الكتاب الثاني فهو تذكرة أولي الألباب[3]، الذي كان يتبوأ منزلة أرقى من سابقة لما يضمه بين دفتيه من معلومات طبية وأوصاف للأمراض والنباتات والحيوانات والمعادن.

وتحتوي الوصفات الواردة في الكتابين المذكورين على آيات وجمل وجداول وأرقام، بالإضافة إلى وصفات تتضمن نقيع بعض النباتات أو مسحوقها أو أجزاء من بعض الحيوانات والطيور، مع الإشارة إلى استرشاد الأنطاكي بآراء أبقراط وجالينوس.

وكان الذي يقوم بالكتابة لعلاج الأمراض أو درئها هو"الفقيه". وتعرف الكتابة عند عامة الناس بـ"الكتبة"، وغالبا ما يكون الفقيه من حفظة القرآن وممن يحفظه للأطفال، عارفا ببعض مبادئ الطب النبوي. وكان الناس يؤمون "الفقهاء" ليكتبوا لهم تمائم ويستوصفونهم لمرض من الأمراض أو درء ما قد يدور بأخلادهم أو يراود مخيلاتهم من ضربات الجن ووخزه وصفعاته.

وكان المريض أو أحد مقربيه يتقدم إلى "الفقيه" في نوالته أو كوخه بالدوار، أو خيمته يوم السوق، فيبسط الفقيه ورقة بيضاء يسطر عليها آيات أو جملا أو جداول بقلمه القصبي الذي يغمسه بين الفينة والأخرى في دواة بها حبر قاتم، ثم يطوي الورقة بإحكام حتى تصبح على شكل مربع أو مستطيل ويقدمه للمريض أو لمن جاء باسمه، بعد أن يوصيه بتغليفه بالصوف أو الكتان، وتعليقه على الجبين أو الذراع أو العنق أو الحزام، ويسمى الحرز أو الحجاب، وكلا التسميتين تفيد معنى الدرء والتترس. وقد تستدعي حالة المريض محو الورق المكتوب بماء أو زيت مع بعض الأعشاب، ثم تجرعه أو استعماله كدهن لبعض أطراف الجسم، كما قد يتطلب الأمر إحراق الورق واستنشاق دخانه. ولم يكن "الفقهاء" يعدون "تميمة لأحد أو يصفون له دواء إلا بعد التعرف على مزاجه وذلك بحساب اسم المريض واسم أمه وقسمة المجموع على سبعة للتعرف على برجه ويومه، ثم يقسم ذلك على أربعة، فإن كان 1 فمزاجه ناري وإن كان 2 فمزاجه ترابي وإن كان 3 فهوائي وإن كان 4 فمائي. ويشتمل الجدول التالي على أرقام الحروف المستعملة في هذه العملية:

---

[1] - كتاب الرحمة في الطب والحكمة لجلال الدين السيوطي.

[2] - Doutte (E). Marrakech, Publication du comite du Maroc, Paris 1905, p. 37.

[3] - تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب لداوود الأنطاكي.

الحروف	العدد الأبجدي	العدد الكلي
أ	1	111
ب	2	3
ج	3	5
د	4	35
ه	5	6
و	6	13
ز	7	18
ح	8	9
ط	9	10
ي	10	11
ك	20	101
ل	30	71
م	40	90
ن	50	106
س	60	120
ع	70	130
ف	80	81
ص	90	95
ق	100	181
ر	200	201
ش	300	360
ت	400	401
ث	500	501
خ	600	601
ذ	700	721
ض	800	801
ظ	900	901
غ	1000	[1]1060

وكانت وصفات العلاج تقدم حسب ما تتطلبه أمزجة المرضى، فالأمزجة الترابية والنارية حارة ومن ثم فإن العلاج اللائق لهذا الصنف يقتضي استعمال أعشاب وأغذية باردة، وعكس ذلك بالنسبة للأمزجة الباردة التي يتطلب علاجها أغذية وأدوية ساخنة.

[1] ـ نادية بلحاج: التطبيب، ص 110 – 111.

وقد يكتب "الفقيه" التميمة على بعض الأواني أو على البيض أو على بعض قطع العظام وصفائح الحديد أو الزنك أو الرصاص. ولم يكن الناس يعلقون الأحراز للشفاء من الأمراض التي تحل بهم فقط، بل إن وضع الأحراز كان ظاهرة عادية لدرء ما قد يفد من الأمراض أو يلم من المكاره والشرور.

ولابد من الإشارة بصدد الكتابة والتمائم إلى أن كثيرا من المغاربة كانوا يومئذ يعتبرون كل ورق مكتوب ناجعا في كشف الآلام ودرء العلل، وذهب بعضهم إلى تعليق وصفات الأطباء الفرنسيين على أصداغهم أو ترائبهم ظنا منهم أنها حرز من الأحراز. وقد حكي أحد الأطباء، في هذا الشأن، ما جرى له مع مريض، سبق له أن أمده ببطاقة تمكنه من ولوج المستشفى لعلاج آلام بساقه، فلما صادفه الطبيب بعد بضعة أيام من ذلك، سأله عن سبب تخلفه عن الذهاب إلى المستشفى، فأجابه ألا داعي إلى ذلك لأن ساقه شفيت. وبعد إلحاح الطبيب على رؤية الجرح، فوجئ بالساق وقد عصبها صاحبها بخرقة متسخة، وفور إزالة الخرقة، تبين للطبيب أن المريض كان قد ثبت البطاقة التي أمده بها، على الجرح قبل أن يعصب ساقه بالخرقة[1]. لقد كان يظن أن بطاقة الطبيب تقوم مقام الحرز !!

يبدو مما سبق ذكره أن المغاربة ظلوا خلال فترة الحماية، يتعاملون مع ما كان يتحيفهم من العلل، كما لو أنه أمر خارجي لا علاقة له بالذات، وأن الأمراض تلم بالإنسان عقابا على انحرافه أو متى أقلق الأرواح الشريرة أو تمادي في إغضابها، لذلك كانت مواجهة كثير منهم للأمراض نابعة من نظرة تستبعد إمكانية الطب "المسيحي" "الكافر" في كشف ما كان يحيق بهم من الأدواء، وتسترشد بطب الأجداد وما تناقلته الأجيال من أنباء العلاج، مع الاعتقاد أن الدواء ينفع ما دام الأجل، وأن ما يتم التوسل به من زيارة للأولياء أو كي أو كتابة لا يعدو كونه سببا لرد الداء، وقد لا يجدي بالضرورة في إزاحته، كما قد لا يرد ما يترتب عليه من الموت الزؤام.

[1] - Harris (w) : Le Maroc… op. cit., p 308.